الألوان تريك الأركان) . أى : أرِ معدتك ألوان الطعام وأصنافه ، تريك الأركان الخالية فيها .

لذلك تجد رائحة رَوْث الحيوان أقلّ كراهية من رائحة فضلات الإنسان ؛ لأنها تأكل بالغريزة التى خلقها الله فيها ، ونحن نأكل بالشهوة ، وبلا نظام نلتزم به .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا .. (٦٣) ﴾ [النمل] أى : مُبشِّرات بالمطر ﴿ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ .. (٦٣) ﴾ والمطر مظهر من مظاهر رحمة الله ﴿ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ .. (٦٣) ﴾ [النمل] أى : لا إله إلا الله يهديكم فى ظلمات البر والبحر ، ولا إله إلا الله يرسل الرياح تبشركم بالمطر ﴿ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) ﴾ [النمل] تنزَّه أن يكون له فى كَوْنه شريك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) ﴾

مسألة الخَلْق هذه لا يستطيعون إنكارها ، وقد سألهم الله : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٨٧) ﴾ [الزخرف]

وفى موضع آخر : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٢٥) ﴾ [لقمان]

لأنهم لا يملكون إنكارها ، وإنْ أنكروها فالردّ جاهز : على مَنْ خلق أولاً أن يُرينا شيئاً جديداً من خَلْقه .

ومعنى ﴿ يَبْدَأُ الْخَلْقَ (٦٤) ﴾[النمل] يعنى : الخَلْق الأول من العدم ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ (٦٤) ﴾[النمل] لأن الذى خلقنا من عدم كتب علينا الموت ، وأخبرنا

بالغيب أننا سنُبعث يوم القيامة ، وسيعاد هذا الخلْق مرة أخرى ، فالذين لم يملكوا إنكار الخلق أنكروا البعث ، فقالوا كما حكى القرآن :
﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ① بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَـٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ② أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ③﴾ [ق]

فاستبعدوا البعث بعد الموت ، وتحلّل الأجساد في التراب . وهذه القضية خَاضَ فيها الفلاسفة بكلام طويل ، وللردِّ عليهم نقول : أنتم في القوانين الوضعية تجعلون الثواب لمن أحسن ، والعقوبة لمن قصَّر ، وتُجرِّمون بعض الأعمال بعينها ، وتضعون لها العقوبة المناسبة ، وفي القانون : لا عقوبةَ إلا بتجريم ، ولا تجريمَ إلا بنصٍّ ، ولا نصَّ إلا بإعلام .

ولم نَرَ في القانون الوضعي جريمة تُركت بلا عقوبة ، فإذا كان البشر يضعون لمجتمعاتهم هذه القوانين التي تنظم حياتهم ، أليس رب البشر أوْلَى بقانون الثواب والعقاب ؟ وإذا كنتَ لا ترضى لنفسك أنْ يفلتَ المجرم من العقاب ، فكيف ترضى ذلك لله ؟

ثم ألا تعلم أن كثيراً من المجرمين يرتكبون جرائمهم في غفلة من القانون ، أو يُعمُّون على العدالة ويهربون من العقاب ، ويُفلتون من القوانين الوضعية في الدنيا ، ولو تركنا هؤلاء بلا عقاب أيضاً في الآخرة فهم إذن الفائزون ، وسوف نشجع بذلك كل منحرف خارج عن القانون .

أما إنْ علم أن له رباً قيوماً عليه ، وإنْ عمَّى على قضاء الأرض فلن يُعمِّي على قضاء السماء ، وإنْ أفلتَ من عقاب الدنيا فلن يُفلتَ أبداً من عقاب الآخرة - إنْ علم ذلك استقام .

لكن ، ما وجه استبعادهم للبعث ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ③﴾ [ق]

يقولون : هَبْ أن إنساناً مات ودُفن وتحلّل جسده إلى عناصر امتصتها الأرض ، ثم غُرِسَت شجرة في هذا المكان وتغذتْ على هذه العناصر ، وأكل من ثمارها عدة أشخاص ، وانتقلت جزئيات الميت إلى الثمار ثم إلى من أكل منها ، فحين يُبعث الخَلْق يوم القيامة فلأيّهما تكون هذه الجزئيات : للأول أم للثاني ؟ إذا بعثتها للأول كانت نقصاً في الثاني ، وإنْ بعثتها للثاني كانت نقصاً في الأول .

وهذا الكلام منهم على سبيل أن الشخص مادة فقط ، لكن التشخيصات مادة و معنى ، وهَبْ أن شخصاً بديناً يزن مثلاً مائة كيلو أصابه مرض أهزله حتى قلَّ وزنه إلى خمسين كيلو مثلاً ، ثم عُولج وتحسنت صحته حتى عاد كحالته الأولى ، فهل الجزئيات التي نقصت من وزنه هي نفسها التي دخلتْ فيه بالصحة والتغذية ؟ بالطبع لا ، أتغيرتْ شخصيته بهذا النقص ، أو بهذه الزيادة ؟ لا ، بل هو هو .

إذن : للشخص جزئيات مختلفة التكوين ، وله معنى وروح ، ساعةَ تتجمع هذه الأشياء يأتي الشخص المراد .

لذلك يقول تعالى رداً على هؤلاء المتفلسفين : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ [ق]

فلماذا تستبعدون الإعادة بعد الموت وقد أقررتم بالخَلْق الأول واعترفتم بأن الله هو الخالق ، وأليست الإعادة من موجود أهونَ من الخَلْق بدايةً من العدم ؟ ثم إن الإعادة تحتاج إلى قدرة على الإبراز وإلى علم .

أما العلم ، فالحق - تبارك وتعالى - يقول : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ

﴿الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ④﴾ [ق] يعنى : يعلم وزنك ، ويعلم جزئياتك ، لا يغيب منها ذرة واحدة[1] .

أما القدرة . فقد آمنتم بها حين أقررتم بقدرته تعالى على الخَلْق من عدم ، والإعادة أهون من الإنشاء الأول ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ .. ㉗﴾ [الروم]

وإنْ كان الخالق - عز وجل - لا يُقَال في حقه هيِّن وأهْون ، لكنها بعُرْفكم أنتم ، وبما يُقرِّب المسألة إلى أذهانكم .

وفي القدرة أيضاً يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ .. ⑮﴾ [ق]

ثم يقول سبحانه : ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ .. ٦٤﴾ [النمل]

الرزق : كلُّ ما يُنتفع به ، وهو إما من السماء وإما من الأرض ، وإما من التقائهما حين ينزل الماء من السماء ، ويختلط بتربة الأرض فيخرج النبات .

﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ .. ٦٤﴾ [النمل] يكرر نفس الاستفهام السابق لتأكيد أنه لا إله إلا الله يأتيكم بهذه النعم .

﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ٦٤﴾ [النمل] أي : هاتوا الدليل على وجود إله آخر يقول : أنا الذي بدأتُ الخَلْق ، وأنا الذي أرزق من السماء والأرض ، فإذا لم يأتِ مَنْ يقول هذا فقد ثبتتْ الدعوة لصاحبها حيث لم يَقُم معارض - ودَعْك من مسألة الإعادة هذه ،

---

(١) قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ .. ④﴾ [ق] : ما تأكل الأرض من لحومهم وأشعارهم وعظامهم . وقال قتادة : يعني الموتى تأكلهم الأرض إذا ماتوا [الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي ٧/ ٥٩٠] .

يكفى أن يدعى الخَلْق ؛ لأن القادر على الخَلْق قادر على الإعادة ، فلا يستحيل على الذى خلق من عدم أنْ يُعيد من موجود .

لكن ، ما مناسبة الكلام عن الرزق من السماء والأرض بعد مسألة الإعادة ؟ لا بُدَّ أن تكون هناك علاقة بينهما ، فالرزق الذى يأتى عن طريق التقاء ماء السماء بتربة الأرض وهو النبات دورة مثل دورة الإنسان وإعادة كإعادته ، حيث يتغذى الإنسان على نبات الأرض ، ويأخذ منه حاجته من الطاقة والغذاء ، وما تبقى منه يخرج على صورة فضلات تتحلل فى الأرض ، حتى ما تبقَّى منها فى جسم الإنسان يتحلل بعد موته إلى عناصر الأرض .

فالوردة مثلاً بعد نضارتها وطراوتها وجمالها حين تُقطف تجفُّ ويتبخر ماؤها ، وكذلك اللون والرائحة فى الأثير الجوى ، وما تبقى منها من مادة جافة تتحلل فى التربة ، فإذا ما زرعنا وردة أخرى ، فإنها تتغذى على ما فى التربة من عناصر ، وما فى الأثير الجوى من لون ورائحة .

إذن : فعناصر التكوين فى الكون لم تَزِدْ ولم تنقص منذ خلق الله الخَلْق ، ولدورة النبات فى الطبيعة بدء ونهاية وإعادة أشبه ما تكون بخَلْق الإنسان ، ثم موته ، ثم إعادته يوم القيامة .

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يعطينا الدليل على الإعادة بما نراه من دورة النبات ، دليلاً بما نراه على الغيب الذى لا نراه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

كما قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأنعام]

والغيب : كلّ ما غاب عن إدراكك وحسّك ، لكن مرة يكون الغيب غيباً إضافياً يغيب عنك ، ولا يغيب عن غيرك ، فأنا لا أعرف مثلاً ما في جيوبكم لكن أنتم تعرفون ، والذي سُرق منه شيء وأخفاه السارق ، فالمسروق منه لا يعلم أين هو ، لكن السارق يعلم .

وإما يكون الغيب غيباً مطلقاً ، وهو ما غاب عنّا جميعاً وهو قسمان : قسم يغيب عنا جميعاً ، لكن قد نكتشفه ككل الاكتشافات التي اهتدى إليها البشر ، وهذه يكون لها مقدمات تُوصل إليها ، وهذا غيب نصف إضافي ؛ لأنه غيب اليوم ، لكن نراه مشهداً بعد ذلك ، فلا يكون غيباً .

ومثال ذلك : تمرين الهندسة الذي نعطيه للأولاد بمقدِّمات ومعطيات ، يُعملون فيها عقولهم حتى يتوصلوا إلى الحل المطلوب ، وهذا النوع يقول الله عنه : ﴿ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ .. ﴿٢٥٥﴾ ﴾ [البقرة]

فإذا شاء الله وجاء ميلاد هذا الغيب أطلعهم الله تعالى على المقدمات التي توصِّل إليه ، إما بالبحث ، وإما حتى مصادفة ، وهذا يؤكده قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت]

ومن الغيب المطلق غَيْب حقيقي ، لا يطلع عليه ولا يعلمه إلا الله فقد استقل سبحانه وتفرَّد بمعرفته ، وهذا الغيب يقول تعالى عنه : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الجن]

ومن هذا الغيب المطلق قضية القيامة ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ.. (٦٥)﴾ [النمل] فالقيامة لا يعلم وقتها إلا الله سبحانه، إلا أنه جعل لها مُقدِّمات وعلامات تدلّ عليها وتُنبيء بقُرْبها.

قال عنها: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا.. (١٥)﴾ [طه] البعض[1] يظن أن ﴿أُخْفِيهَا.. (١٥)﴾ [طه] يعني: أداريها وأسترها، لكن المعنى ليس كذلك ﴿أُخْفِيهَا.. (١٥)﴾ [طه] يعني: أزيل خفاءها[2]، ففرق بين خَفَى الشيء وأخفاه: خَفَى الشيء عني: ستره وداراه، أما أخفاه فيعني: أظهره، وهذه تُسمَّى همزة الإزالة، مثل: أعجم الشيء يعني: أزال عُجْمته. ومنه المعجم الذي يُوضِّح معاني المفردات.

وكما تكون الإزالة بالهمزة تكون بالتضعيف. تقول: مرض فلان يعني: أصابه المرض، ومرَّض فلاناً يعني: عالجه وأزال مرضه، ومنه: قشَّر البرتقالة: يعني أزال قشرها.

فالمعنى ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا.. (١٥)﴾ [طه] أي: أكاد أظهرها، ألاَ ترى أن للساعة علامات كبرى وعلامات صغرى، نرى بعضها الآن، وتتكشف لنا مع الأيام علامة بعد أخرى.

لكن يظل للقيامة وقتها الذي لا يعلمه إلا الله؛ لذلك يقول عنها: ﴿لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ.. (١٨٧)﴾ [الأعراف]

والنبي ﷺ يفتخر بأنه لا يعلم موعدها، فيقول حين سُئل عنها:

---

(١) قاله ابن عباس فيما رواه عنه ابن أبي حاتم وأورده السيوطي في الدر المنثور (٥/٥٦٣) قال: لا أظهر عليها أحداً غيري.

(٢) أخرج ابن أبي حاتم وابن الأنباري عن ورقاء قال: أقرأنيها سعيد بن جبير (أَكَادُ أَخْفِيهَا) [بفتح الألف] يقول: أظهرها. [الدر المنثور للسيوطي ٥/٥٦٣].

« ما المسئول عنها بأعلم من السائل »[1] .

فشَرَفٌ لرسول الله ألاَّ يعلم شيئًا استأثر الله بعلمه ، والقيامة غَيْبٌ مطلق لم يُعْطِ الله مفاتحه لأحد حتى الرسل .

وقد يُكرم الله تعالى بعض خَلْقه ، ويُطلعه على شيء من الغيب ، ومن ذلك الغيبيات التي أخبر بها النبي ﷺ دون أن يكون لها مُقدِّمات توصِّل إليها ، فلا بُدَّ أنها أتته في وحي القرآن ، كما في قوله تعالى : ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ .. ۝٤﴾ [الروم]

وكان الروم أقرب إلى الله ؛ لأنهم أهل كتاب ، وكان الفرس كفارًا يعبدون النار ، لذلك كان رسول الله ﷺ وصحابته يتمنَّون انتصار الروم على الفرس ، فنزل الوحي على رسول الله يخبره ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢﴾ [الروم] لكنهم في النهاية ﴿سَيَغْلِبُونَ ۝٣﴾ [الروم] ولولا أن الله تعالى حدد غلبهم ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ .. ۝٤﴾ [الروم] لكان انتصارهم دائمًا ، لكن مَنْ يستطيع تحديد مصير معركة بين قوتين عُظْميين بعد بضع سنين إلا الله ؟

ولأن انتصار الروم يُفرح المؤمنين بالله ، قال سبحانه : ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ .. ۝٥﴾ [الروم]

وتشاء قدرة الله أنْ يأتيَ انتصار الروم على الفرس في نفس

---

(١) حديث متفق عليه ، أخرجه مسلم في صحيحه (٨) ، وكذا البخاري في صحيحه (٥٠) من حديث عمر بن الخطاب أن جبريل عليه السلام جاء رسول الله ﷺ في صورة رجل يسأله ، ومما سأله قال : « أخبرني عن الساعة » ، قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، قال : فأخبرني عن أماراتها قال : أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان ، ثم قال رسول الله ﷺ لعمر : يا عمر ، أتدري من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنه جبريل ، أتاكم يعلمكم دينكم » .

اليوم الذى انتصر فيه المؤمنون على الكافرين فى بدر[١] .

ومن الغيب الذى يفيض الله به على عبد من عباده ما حدث من الصدِّيق أبي بكر ـ رضى الله عنه ـ وقد أعطى ابنته عائشة ـ رضى الله عنها ـ مالاً ، فلما حضرتْه الوفاة قال لها : هاتى ما عندك من المال ، إنما هما أخواك وأختاك : أخواك هما محمد وعبد الرحمن ، وأختاك : لا نعلم أن لعائشة أختاً غير أسماء ، فمن هى الأخرى[٢] ؟

كان الصدِّيق قد تزوج من ابنة خالته[٣] وكانت حاملاً ، لكن الحق ـ تبارك وتعالى ـ تجلى عليه وألهمه أنها ستُنجب بنتاً تنضم إلى عائشة وأسماء[٤] .

وقوله تعالى : ﴿وما يشعرون أيَّان يبعثون (٦٥)﴾ [النمل] أى : كما

---

(١) عن أبى سعيد الخدرى قال : لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس ، فأعجب المؤمنون بظهور الروم على فارس . أخرجه الواحدى فى أسباب النزول ص ١٩٧ .

(٢) هى : أم كلثوم بنت أبى بكر الصديق التيمية ، تابعية ، أمها حبيبة بنت خارجة وضعتها بعد موت أبى بكر . روى عنها جابر بن عبد الله الأنصارى . [الإصابة ٨/٢٧٦] .

(٣) هى : حبيبة بنت خارجة بن زيد الخزرجية ، زوج أبى بكر الصديق ووالدة أم كلثوم ابنته التى مات أبو بكر وهى حامل بها فقال : ذو بطن بنت خارجة ما أظنها إلا أنثى فكان كذلك . تزوجت إساف بن عتبة بن عمرو بعد وفاة أبى بكر . انظر الإصابة فى تمييز الصحابة (٨/٤٨) .

(٤) تزوج أبو بكر الصديق عدة نساء :

- أم رومان بنت عامر بن عويمر الكنانية ، وأنجب منها : عائشة ، عبد الرحمن . اسمها زينب بنت عبيد : كانت زوجة للحارث بن سخبرة أو لعبد الله بن الحارث وولدت له الطفيل ثم مات عنها وتزوجها حليفه أبو بكر الصديق . ماتت فى حياة النبى ﷺ [الإصابة ٨/٢٣٢] .
- حبيبة بنت خارجة ، وأنجب منها : أم كلثوم ، وتزوجت بعده .
- قتيلة بنت عبد العزى قرشية من بنى عامر بن لؤى . وهى والدة أسماء ، وعبد الله . قال ابن حجر العسقلانى فى الإصابة (٨/١٦٩) : « إن كانت عاشت إلى الفتح فالظاهر أنها أسلمت » .

أننا لا نشعر بالموت ولا نعرف ميعاده ، كذلك لا نشعر بالبعث ، ولا متى سنُبعث .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

معنى ﴿ ادَّارَكَ .. ﴿٦٦﴾ ﴾ [النمل] أي : تدارك ، يعني : توالى وتتابع الحديث عنها عند كل الرسل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأعراف] يعني : جُمِع بعضهم على بعض .

إذن : تتابع الإعلام بالآخرة عند كل رسل الله ، فما منهم إلا وقد دعا إلى الإيمان بالله وباليوم الآخر ، وأتى بالدليل عليه .

ومع متابعة التذكير بالآخرة قال الله عنهم ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا .. ﴿٦٦﴾ ﴾ [النمل] أي : من الآخرة ، فلماذا ؟ يقول تعالى : ﴿ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [النمل] أي : عميتْ أبصارهم وبصائرهم عنها ، فلم يهتدوا ، ولو تفتحتْ عيونهم وقلوبهم لآمنوا بها .

يقول تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج]

إذن : هناك شيء موجود بالفعل ، لكني أغفلته ، أو تغافلت عنه بإرادتي ، فآيات البعث والقيامة موجودة ومُتداركة ، لكن الناس عَمُوا عنها فلم يَرَوْها .

ومعنى ﴿ عَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [النمل] جمع عَمٍ ، وهو الذي عميتْ بصيرته عن دلائل القيامة الواضحة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

يريدون أنْ يستدلوا بعدم بعث الآباء على عدم بَعْثهم ، لكن مَنْ قال لهم : إن الآخرة ستأتي مع الدنيا ، وما سُمِّيت الآخرة إلا لأنها تأتي آخراً بعد انقضاء الدنيا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

أي : من لدن آدم - عليه السلام - والناس يموتون والأنبياء تذكر بهذا اليوم الآخر ، لكنه لم يحدث ﴿ إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٦٨) ﴾ [النمل] أي : كذب وافتراء ونسج خيال كما في أساطير السابقين ، لكن ما الدافع لهم لأنْ يتهموا الرسل في بلاغهم عن الله هذا الاتهام ؟

قالوا : لأن نفس المرء عزيزة عليه ، وكل مُسْرف على نفسه في المعاصي يريد أنْ يُؤمِّن نفسه ، وأنْ يريحها ، وليس له راحة إلا أنْ يقول هذا الكلام كذب ، أو يتمنى أن يكون كذباً ، ولو اعترف بالقيامة وبالبعث والحساب فمصيبته عظيمة ، فليس في جُعْبته إلا كفر بالله وعصيان لأوامره ، فكيف إذن يعترف بالبعث ؟ فطبيعي أن يؤنس نفسه بتكذيب ما أخبر به الرسول .

لذلك تجد من هؤلاء مَنْ يقول في القدر : إذا كان الله قد كتب عليَّ المعصية ، فلماذا يُعذِّبني بها ؟ والمنطق يقتضي أن يكملوا

الصورة فيقولون : وإذا كتب عليَّ الطاعة ، فلماذا يثيبني عليها ؟ فلماذا ذكرتُم الشر وأغفلتم الخير ؟

إذن : هؤلاء يريدون المنفذ الذى ينجون منه ويهربون به من عاقبة أعمالهم .

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾

يدعوهم الله تعالى إلى السير فى مناكب الأرض للنظر وللتأمل لا فيمن بُعث ، لأن البعث لم يأتِ بَعْد ، ولكن للنظر فى عاقبة المجرمين الذين كذَّبوا رسلهم فيما أتَوْا به ، وكيف أن الله هزمهم ودحرهم وكتب النصر للرسل .

والبعث مما جاء به الرسل ، فمَنْ كذَّب الرسل كذَّب بالبعث مع أنه واقع لا شكَّ فيه ، لكن الحق - تبارك وتعالى - يُخفيه لوقته ، كما قال سبحانه : ﴿ لا يُجلِّيهَا لِوَقْتِهَا إلاَّ هُوَ .. ﴿١٨٧﴾ ﴾ [الأعراف]

ثم يُسلِّي الله تعالى رسوله ﷺ ليُخفِّف عنه ألم ما يلاقى فى سبيل الدعوة ، فيقول تعالى :

﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

وقد خاطب الحق سبحانه رسوله بقوله : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَـٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف]

والمعنى : مُهلك نفسك من الحزن ، والبخع كما قلنا : المبالغة فى

الذبح بحيث توصله إلى البخاع[1] . والحق - تبارك وتعالى - يوضح أن مهمة الرسول البلاغ عن الله فقط ، ولا عليه آمن مَنْ آمن ، أو كفر مَنْ كفر ، إنما حب النبي ﷺ لأمته وحرْصه على نجاتها جعلاه يحزن ويألم إنْ شرد منه واحد من أمته ، ألم يقُلْ عنه ربه : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة]

ثم يقول الحق سبحانه عنهم :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ ﴾

يقول المكذبون بالبعث ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ .. ﴿٧١﴾ ﴾ [النمل] أي : بالبعث ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ [النمل] في أن هناك بَعْثاً .

وسمَّوْا إخبار الله لهم بالبعث وَعْداً ، مع أنه في حقهم وعيد ، وفَرْق بين وَعَد وأوعد : وَعَد للخير وأوعد للشر ، لكن الله تعالى يطمس على ألسنتهم ، وهم أهل الفصاحة فيقولون ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ .. ﴿٧١﴾ ﴾ [النمل] وهو بالنسبة لهم وعيد ، لأن إيعاد المخالف لله بشرٍّ وَعْد لك بخير .

وكأن الحق - تبارك وتعالى - يقول : لقد وعدنا بأمرين : وعدنا رسلنا بالتأييد والنصرة ، ووعدنا العالم كله بالبعث ، فإذا كنا صادقين في الأولى وهي مُشَاهدة لكم ومُجسَّة فخذوها مقدمة ودليلاً على صدْقنا في الأخرى ، وقد عاينتُم أن جميع الرسل انتصروا على

---

(١) قال الزمخشري : هو من بخع الذبيحة إذا بالغ في ذبحها وهو أن يقطع عظم رقبتها ويبلغ بالذبح البخاع ، بالباء ، وهو العرق الذي في الصلب ، والنخع ، بالنون ، دون ذلك ، وهو أن يبلغ بالذبيحة النخاع ، وهو الخيط الأبيض الذي يجري في الرقبة . قال ابن الأثير : هكذا ذكره الزمخشري في الكشاف وفي كتاب الفائق في غريب الحديث ولم أجده لغيره . [لسان العرب - مادة : بخع] .

مُكذِّبيهم ، إما بعذاب الاستئصال ، وإما بعذاب الهزيمة والانكسار .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ۝٧٢ ﴾

كلمة ﴿ عَسَىٰٓ .. ۝٧٢ ﴾ [النمل] تفيد الرجاء ، لكنها من الله تفيد التحقيق ، فلو قُلْت مثلاً : عسى أن يعطيك فلان ، لكان الرجاء ضعيفاً ، وأقوى منه لو قُلْت : عسى أن أعطيك لأنني لا أملك فلاناً ، لكن أملك نفسي ، وأقوى من ذلك أن أقول : عسى أن يُعطيك الله لأن أسبابي أنا قد لا تمكّنني من الوفاء ، أما إنْ قال الله تعالى عسى ، فهي قمة التأكيد والتحقيق في الرجاء ، وهي أعلى مراتبه وأبلغها .

ومعنى ﴿ رَدِفَ لَكُم .. ۝٧٢ ﴾ [النمل] أي : تبعكم وجاء بعدكم من أردفه إذا أركبه خلفه على الدابة ، فهو خلفه مباشرة ، وفعلاً أصابهم ما يستعجلون ، فلم يمرّ طويلاً حتى حاقت بهم الهزيمة في بدر(١) ، فصدَّقْنا في الأولى حين قلنا : ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥ ﴾ [القمر] وقد عاينتُم ذلك ، فخذوه دليلاً على الغَيْب الذي أخبرناكم به .

ثم يقول رب العزة سبحانه :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ۝٧٣ ﴾

فمن فضله تعالى عليكم أنْ يُؤخِّر القيامة لعل الناس يرعوون ،

(١) قال القرطبي في تفسيره (٧/٥١٦٤) : ﴿ بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ۝٧٢ ﴾ [النمل] : من العذاب ، فكان ذلك يوم بدر . وقيل : عذاب القبر .

والا لفاجأتهم من أول تكذيب ، وهذا يبين أن الله تعالى يُمهل الخَلْق ليزداد فيهم أهل الهدى والإيمان ، ألاَ ترى أن المؤمنين برسول الله لم يأتُوا جميعاً مرة واحدة في وقت واحد ، إنما على فترات زمنية واسعة .

لذلك قلنا : إن المسلمين الأوائل كانوا في معاركهم مع الكفر يألمون إنْ فاتهم قَتْل واحد من رؤوس الكفر وقادته مثل عكرمة وعمرو وخالد وغيرهم ، ولو أطلعهم الله على الغيب لَعلموا أن الله تعالى نجّاهم من أيديهم ليدخرهم فيما بَعْد لنُصْرة الإسلامَ ، وليكونوا قادة من قادته ، وسيوفاً من سيوفه المشْهَرة في وجوه الكافرين .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٧٣) ﴾ [النمل] دليل على أن البعض منهم يشكر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٤) ﴾

ولك أنْ تقول في هذه الآية : إذا كان الله تعالى يعلم ما تُكنُّ صدورهم وما تخفيه ، فمن باب أَوْلَى يعلم ما يُعلنون ، فلماذا قال بعدها : ﴿ وما يُعْلِنون (٧٤) ﴾ [النمل] ؟

نقول : لأن ما في الصدور غَيْب والله غَيْب ، وقد يقول القائل : ما دام أن الله غَيْب فلا يعلم إلا الغيب ، فنردّ عليه بأن الله تعالى يعلم الغيب ويعلم العلن .

﴿ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ(١) فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ (٧٥) ﴾

(١) قال الحسن : الغائبة هنا القيامة ، وقيل : ما غاب عنهم من عذاب السماء والأرض ، حكاه النقاش ، وقال ابن شجرة : الغائبة هنا جميع ما أخفى الله تعالى عن خلقه وغيبه عنهم ، وهذا عام . [ذكره القرطبي في تفسيره (٧/ ٥١١٥)] .

معنى ﴿ غَائِبَةٍ .. (٧٥) ﴾ [النمل] يعني : الشيء الغائب ، ولحقتْ به التاء الدالة على المبالغة ، كما نقول في المبالغة : راوٍ وراوية ، ونسَّاب ونسَّابة ، وعالم وعلامة ، كذلك غائب وغائبة ، مبالغة في خفائها .

و (مِنْ) هنا يرى البعض أنها زائدة ، لكن كلمة زائدة لا تليق بأسلوب القرآن الكريم وفصاحته ، ونُنزِّه كلام الله عن الحشو واللغو الذي لا معنى له ، والبعض تأدب مع القرآن فقال (من) هنا صلة ، لكن صلة لأي شيء ؟

إذن : لابد أن لها معنى لكي نوضحه نقول : إذا أردتَ أنْ تنفي وجود مال معك تقول : ما عندي مال ، وهذا يعني أنه لا مالَ معك يُعتدّ به ، ولا يمتنع أن يكون معك مثلاً عدة قروش لا يقال لها مال ، فإن أردتَ نفي المال على سبيل تأصيل العموم في النفس تقول : ما عندي من مال ، يعني بداية ممَّا يُقال له مال مهما صَغُر ، فمنْ هنا إذن ليست زائدةً ولا صلةً ، إنما هي للغاية وتأصيل العموم في النفي .

فالمعنى ﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٧٥) ﴾ [النمل] أن الله تعالى يحيط علمه أزلاً بكل شيء ، مهما كان صغيراً لا يُعتدُّ به ، واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٥٩) ﴾ [الأنعام]

كما أن قدرته تعالى لا تقف عند حد العلم إنما ويسجله ﴿ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٧٥) ﴾ [النمل] أي في أمّ الكتاب الذي سجَّل الله فيه كل أحداث الكون ، فإذا ما جاءتْ الأحداث تراها مُوافقة لما سجَّله الله عنها

أوّلاً ، فمثلاً لما ذكر الحق ـ تبارك وتعالى ـ وسائل النقل والمواصلات في زمن نزول القرآن قال : ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ⑧ ﴾ [النحل]

فلولا تذييل الآية بقوله تعالى : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ⑧ ﴾ [النحل] لكان فيها مأخذ على القرآن ، وإلاَّ فأين السيارة والطائرة والصاروخ في وسائل المواصلات ؟

إذن : نستطيع الآن أنْ نُدخل كل الوسائل الحديثة تحت ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ⑧ ﴾ [النحل]

وسبق أن قلنا : إن من عظمة الحق ـ سبحانه وتعالى ـ ألاَّ يُعلم بشيء لا اختيار للعبد فيه ، إنما بما له فيه اختيار ويفضحه باختياره ، كما حدث في مسألة تحويل القبلة : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا .. ﴿١٤٢﴾ ﴾ [البقرة]

فيعلنها الله تعالى صراحة ، ويُسمِّيهم سفهاء ؛ لأنهم يعادون الله ويعادون رسول الله ، وبعد هذه الخصومة وهذا التجريح قالوا فعلاً ما حكاه القرآن عنهم .

ولم نَرَ منهم عاقلاً يتأمل هذه الآية ، ويقول : ما دام أن القرآن حكي عنا هذا فلن نقوله ، وفي هذه الحالة يجوز لهم أنْ يتهموا القرآن وينالوا من صدْقه ومن مكانة رسول الله ، لكن لم يحدث وقالوا فعلاً بعد نزول الآية : ﴿ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا .. ﴿١٤٢﴾ ﴾ [البقرة] يعني : تركوا التوجه إلى بيت المقدس وتوجهوا إلى مكة ، قالوه مع ما لهم من عقل واختيار .

وهذه المسألة حدثتْ أيضاً في شأن أبي لهب لما قال الله عنه :

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾ [المسد]

لأنه قالها لرسول الله ﷺ لما جمعهم ليبلغهم دعوة الله ، فقال له : تباً لك ألهذا جمعتنا[1] . وأبو لهب عم رسول الله ، كحمزة والعباس ولم يكن رسول الله يدري مستقبل عمه ، فلعله يؤمن كما آمن حمزة وصار أسد رسول الله ، وكما آمن العباس بن عبد المطلب .

فلما نزلت ﴿تَبَّتْ يَدَا .. ۝١﴾ [المسد] كان بإمكانه أنْ يُكذِّبها وأن يؤمن فينطق بالشهادتين ولو نفاقاً ، فله على ذلك قدرة ، وله فيه اختيار ، لكنه لم يفعل .

إذن : من عظمة كلام الله ومن وجوه الإعجاز فيه أنْ يحكم حكماً على مختار كافر به ، وهو قرآن يُتْلَى علانيةً على رؤوس الأشهاد ، ومع ذلك لا يستطيع التصدِّي له ، ويبقى القرآن حُجَّة الله على كل كافر ومعاند .

ولما نتأمل قوله تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر] نرى أن الحق سبحانه أنزل القرآن وتولَّى حفظه بنفسه - سبحانه وتعالى - ولم يُوكِله إلى أحد ، مع أن في القرآن أشياء وأحداثاً لم توجد بعد ، فكأن الله تعالى يحفظها على نفسه ويُسجِّلها

---

(١) عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ [الشعراء] خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا (جبل بمكة) فاجتمعوا إليه ، قال : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مُصدقي ؟ قالوا : ما جربنا عليك كذباً . قال : فإني نذير لكم بين يدَي عذاب شديد . قال أبو لهب : تباً لك أما جمعتنا إلا لهذا ؟ فنزلت هذه السورة ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ [المسد] . أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (١٨١/٢) وأحمد في مسنده (٣٠٧/١) ومسلم في صحيحه - كتاب الإيمان (حديث ٣٥٥) ، والبخاري في صحيحه أيضاً (٧٣٦/٨ - فتح الباري) .

ويعلنها . لماذا ؟ لأنها ستحدث لا محالة .

فالحق سبحانه لا يخشى واقع الأشياء ألاّ تطاوعه ؛ لأنه مالكها ، ألاَ ترى أن الإنسان يحفظ (الكمبيالة) التي له ، ولا يهتم بالتي عليه ؟ أما ربُّنا عز وجل فيحفظ لنا الأشياء وهي عليه سبحانه وتعالى .

واقرأ إن شئت : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] فالله يُسجِّلها على نفسه ويحفظها ؛ لأنه القادر على الإنفاذ ، وفعلاً هُزِم الجمع وولّوا الأدبار وصدق الله .

﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦) ﴾

فَرْق بين أن تخاطب خاليَ الذهن ، وأنْ تخاطب مَنْ لديه فكرة مُسْبقة ، فخالي الذهن يقبل منك ، أما صاحب الفكرة المسْبقة فيعارضك ، كذلك جاء من الكفار ومن أهل الكتاب من يعارض كتاب الله وينكر ما جاء به ، ومع أنهم أعداء الإسلام وكارهون له لكنْ إنْ سألتَهم عما أخبر به القرآن يقولون : نعم نعرف هذا من كتبنا ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) ﴾ [البقرة]

لذلك سيدنا عبد الله بن سلام[1] عندما نظر إلى رسول الله علم أنه الرسول الحق ، فمالتْ نفسه إلى الإسلام وقال : والله إنِّي لأعرف

---

(١) هو أبو يوسف عبد الله بن سلام بن الحارث من ذرية يوسف النبي عليه السلام ، كان من بني قينقاع ، كان اسمه الحصين فسماه النبي ﷺ عبد الله ، أسلم أول ما قدم النبي ﷺ المدينة ، وقيل : تأخر إسلامه إلى سنة ثمان . كان أعلم بني إسرائيل ومن سادتهم ، توفي بالمدينة عام ٤٣ للهجرة . [الإصابة في تمييز الصحابة ٤/ ٨١] .